BALAGH
Journal of Islamic and Humanities Studies
Vol 3 / No 2 – Dec 1444 / 2023
ISSN: 2791-6561
Received: 28.09.2023 | Accepted: 11.12.2023 | DOI: 10.5281/zenodo.10350097 0000-0003-3750-1194

علاقة المقاصد بالخلق والتكوين نحو تفعيل النظر المقاصدي في الخلق الإلهي

The Relation Of The Science Of Maqasid With Creation And Composition: Towards Activating The Purposive Point Of View in Divine Creation

وصفي عاشور أبو زيد *

Vasfi Âşûr Ebû Zeyd

ملخص

إن الحديث عن مقاصد الخلق: خلق الكون، وخلق المخلوقات عامة، وخلق الإنسان خاصة، أمر بالغ الأهمية والأثر؛ فالقرآن الكريم – والسنة معه – فيه مئات النصوص التي تتحدث عن مقاصد خلق الكون، بسماواته وأرضه، وليله ونهاره، وشمسه وقمره، ورياحه وأمطاره، وفيه مئات النصوص التي تتحدث عن مقاصد خلق النبات والشجر والدواب والخيل والبغال والحمير والأنعام.

فالقرآن الكريم فيه آيات تمثل موسوعة مقاصدية في الخلق والتكوين، وخلق النبات والحيوان والإنسان، وذلك بذكر مقاصد تفصيلية لكل خلق من خلقه، ومقاصد مجملة للخلق عامة بكل ما في الدنيا وما في السموات وما في الأرض، وهذا يدل على كمال الله تعالى، وطلاقة قدرته، وجمال خلقه، وعظمة نعمه على الخلق أجمعين.

وهذا يجعلنا نتحدث عن الفوائد المرجوّة من العلم بمقاصد الخلق: خلق الكون، وخلق الإنسان، وخلق الحيوان، وخلق النبات، وهذه الفوائد لها آثار عظيمة على النفس، فمعرفة مقاصد الخلق تعزز الإيمان بالله تعالى، وتزيد الإيمان بآثار أسمائه الحسنى وصفاته العلى، وهي امتثال لأمر الله تعالى، وأمر رسوله – صلى الله عليه وسلم – بالتفكر في خلق الله تعالى، وتجويد تدين المسلمين، ودعوة غير المسلمين، وغير ذلك من فوائد تجعل للنظر إلى الكون والخلق ذا أهمية وفاعلية.

* Prof. Dr. Ibn Haldun University. Department of Basic Islamic Sciences. ORCID: 0000-0003-3750-1194 E-Mail: vasfi.abuzid@ihu.edu.tr

الكلمات المفتاحية: مقاصد الخلق، مقاصد الكون، أهمية المقاصد، زيادة الإيمان، الدعوة الإسلامية، النظر المقاصدي.

Abstract: Talking about the purposes of creation: the creation of the universe, the creation of creatures in general, and the creation of man in particular, is of great importance and impact. The Holy Qur'an - and the Sunnah with it - contains hundreds of texts that talk about the purposes of creating the universe with its heavens and earth, its night and its day, its sun and its moon, its winds and its rains, and it contains hundreds of texts that talk about the purposes of creating plants, trees, animals, horses, mules, donkeys and cattle.

The Holy Qur'an includes verses that represent an encyclopedia of purposes in creation, formation, and the creation of plants, animals, and humans, by mentioning detailed purposes for each of his creatures, and overall purposes for creation in general with everything in the world and what is in the heavens and what is on the earth, and this indicates the perfection of God Almighty, the omnipotence of His power, and the beauty His creation, and the greatness of His grace upon all creation.

This makes us talk about the desired benefits from knowledge of the purposes of creation: the creation of the universe, the creation of man, the creation of animals, and the creation of plants, and these benefits have great effects. He commanded His Messenger, may God's prayers and peace be upon him, to reflect on the creation of God Almighty, to improve the religiosity of Muslims, to invite non-Muslims, and other benefits that make looking at the universe and creation important and effective.

Keywords: the purposes of creation, the purposes of the universe, the importance of purposes, increasing faith, the Islamic call.

ملخص

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وآله وصحبه ومن والاه، وبعد.

فإن من أوائل ما خلق الله تعالى من خلقه كان هذا الكون البديع، الذي خلقه على غير مثال، فخلقه وسواه وأحكمه وأحسنه، ونظمه ورتبه، وأتقنه وقسّمه، بحيث أصبح نظاما محكما، لا يختلط مخلوق بآخر، ولا تتداخل وظيفة مخلوق مع وظيفة مخلوق آخر، وكلٌّ في فلك يسبحون.

وقد استعرض القرآن الكريم قصة الخلق، وطبيعة هذا الخلق، ومدة خلق السموات والأرض، كما ذكر القرآنُ الكريم مقاصد هذا الخلق على الأرض، ومخلوقات هذا الكون في السماء والأرض وما بينهما، في آيات عدة قد تتجاوز خُمس القرآن الكريم.

ففي خلق الكون على غير مثال سابق قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة ١١٧]. وقال: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ

صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [الأنعام ١٠١]. فقوله تعالى ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: بارئهما وخالقهما على وجه متقن على غير مثال سبق.

وعن قصة بدء الخلق قال سبحانه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنبياء ٣٠].

وفي خلق السموات والأرض قال: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت ١١].

وفي مدة الخلق قال: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [فصلت ١٢].

وفي قصة خلق آدم من بدء خليقته إلى البعث والنشور قال عز شأنه: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون ١٢-١٦].

من أجل هذا أردنا أن نتعرض لبحث هذه القضية، مع بيان مقاصد هذا الخلق، وفوائد معرفة هذه المقاصد، على الصعيدين الإيماني والدعوي معا.

أهمية البحث

تأتي أهمية هذا البحث من أن تناوله سيكون معزَّزًا بالنصوص الشرعية، وهي منطلَقه الأساس، كما أن الدراسات عن مقاصد الخلق والتكوين تعتبر نادرة، رغم الحديث الكثيف في القرآن الكريم عنها، ومن ناحية أخرى فإن الوقوف على مقاصد خلق الكائنات، ومقاصد خلق الإنسان، فيه فوائد عظيمة، تفيد الإنسان في هذه الحياة، وتؤثر إيجابيا في قيامه بوظائفه، وهو ما ينعكس في النهاية على ترقية الحياة ونهضتها، والفلاح في الآخرة والفوز بدرجاتها العلى.

الدراسات السابقة

لا أعم في القديم والحديث – حسب اطلاعي – من تناول مقاصد الخلق والتكوين إلا أبا حامد الغزالي في رسالته: "**الحكمة في مخلوقات الله عز وجل**"، وقد تتبع فيها ما ورد في القرآن الكريم من آيات قرآنية تشير إلى الوظيفة التي خُلق لأجلها كلُّ مخلوق، ولكنه لم يُعَرّفها ولم يذكر فوائدها، وستأتي الإشارة لها.

وهناك بحث آخر بعنوان: **"مقاصد الخلق الخمسة وجوهر التربية الأصيل: دراسة في ضوء القرآن الكريم"** للدكتور محمد أبو بكر المصلح، نشر في مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر([1])، رأى فيه أن مقاصد الخلق خمسة: العبادة، والاستخلاف في الأرض، وعمارتها، والابتلاء، والاختلاف بين الناس، مبينا أثر كل مقصد في التربية، وعلاقات هذه المقاصد بعضها ببعض.

وحديثنا في هذا البحث لا يقتصر فقط على سرد الآيات القرآنية التي تبين مقاصد خلق الله تعالى في الكون والنبات والحيوان والإنسان، وإنما تبين أيضا فوائد العلم بهذه المقاصد، وكيفية استثمار العلم بها لحركة حضارية في هذه الحياة للإنسان، يكون سلوكُه بها راشدًا، وعطاؤه بها فاعلاً.

١. مقاصد التكوين (خلق الكون):

أما ما يتعلق بمقاصد هذا الخلق والتكوين فقد أفاض فيه القرآن الكريم بما يوسع آفاق الدرس المقاصدي، ويضيف إلى مقاصد التشريع مقاصدَ التكوين، وهذا مبحث من المهم أن يضاف للدرس المقاصدي وعلم المقاصد.

١,١. تعريف مقاصد الخلق الكوني:

وقبل أن نتعرض لبيان مقاصد الخلق الكوني، نعرفها بأنها: **الغايات التي خلق الله لأجلها المخلوقات سوى الإنسان لمعرفة تسخيرها وتحقيق مصلحة الإنسان بها في الدنيا والآخرة.**

ونحن هنا نقسم مقاصد الخلق نوعين:

النوع الأول: مقاصد خلق الكون (التكوين) نسبة للكون؛ سماءً وأرضًا ومخلوقاتٍ سوى الإنسان.

والنوع الثاني: مقاصد خلق الإنسان.

٢.مقاصد خلق الكون:

حفل القرآن الكريم بآيات تمثل مدونة ذكر فيها ما خلقه اله تعالى، مع بيان غايات هذا الخلق على النحو الآتي:

٢. ١. يقول الله تعالى عن خلق السموات والأرض مبينًا المقصد من خلقهم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق ١٢]. وهذه الآية الكريمة جامعة للحديث عن بيان مقاصد لخلق الكون

([1]) QU Current Journals Journal of College of Sharia & Islamic Studies ١٤٤٢-2021 - Volume 38 - Issue 2 – Pages: ٢٠٤ – ١٧٧.

والإنسان، فالغرض من خلق السموات والأرض هو أن يعلم الناس طلاقة القدرة الإلهية وأنه أحاط بكل شيء علما، ومتى عرف الإنسان ذلك قام بحق العبودية، وائتمر بأوامر الله، وانتهى عن نواهيه، وعبده حق عبادته.

٢. ٢.وفي خلق الموت والحياة يبين الله عز شأنه المقصد من خلقهما قائلا: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك ٢]، فهو الابتلاء والاختبار، وهذه طبيعة الحياة الدنيا، وكذلك الموت، وهذا يجعل الإنسان على بصيرة من أمر الحياة والموت، فيضع كل شيء في مكانه الصحيح، ومن ثم يحصل الاعتدال العقلي والنفسي.

٢. ٣.وفي خلق الشمس والقمر يقول عز شأنه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ [يونس ٥-٦]. ففي هذه الآيات الكريمة بين الله تعالى الغرض من خلق الشمس، وهو جعلها ضياءً، والقمر نورًا، وبيّن الغرض من تقدير منازلَ للقمر، وهو أن يعلم الناسُ عدد السنين والحساب، ثم بينت الآياتُ طلاقةَ القدرة الإلهية، وما تقتضيه من العباد.

يقول الإمام الرازي: "اعلم أنه تعالى استدل على التوحيد والإلهيات، أولا: بتخليق السموات والأرض، وثانيا: بأحوال الشمس والقمر، وثالثا : في هذه الآية بالمنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار... ورابعا : بكل ما خلق الله في السموات والأرض، وهي أقسام الحوادث الحادثة في هذا العالم، وهي محصورة في أربعة أقسام، أحدها: الأحوال الحادثة في العناصر الأربعة، ويدخل فيها أحوال الرعد والبرق والسحاب والأمطار والثلوج، ويدخل فيها أيضا أحوال البحار، وأحوال المد والجزر، وأحوال الصواعق والزلازل والخسف. وثانيها: أحوال المعادن وهي عجيبة كثيرة. وثالثها: اختلاف أحوال النبات. ورابعها: اختلاف أحوال الحيوانات، وجملة هذه الأقسام الأربعة داخلة في قوله تعالى: ﴿وما خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾، والاستقصاء في شرح هذه الأحوال مما لا يمكن في ألف مجلد، بل كل ما ذكره العقلاء في أحوال أقسام هذا العالم فهو جزء مختصر من هذا الباب" ا.هـ.([٢]).

ثم يقول: "كل ما في العالم من نبات وحيوان وجسد وروح وظلمة ونور فهو مِلكه ومُلكه، ومتى كان الأمر كذلك كان قادرًا على كل الممكنات، عالما بكل المعلومات غنيًّا عن جميع الحاجات، مُنزَّهًا عن النقائص والآفات، فهو تعالى لكونه قادرًا على جميع الممكنات يكون قادرًا على إنزال العذاب على الأعداء في الدنيا وفي الآخرة، ويكون قادرًا على إيصال الرحمة إلى الأولياء في الدنيا وفي الآخرة، ويكون قادرًا على تأييد رسوله

([٢]) الرازي، مفاتيح الغيب، أو التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت. بدون بيانات: ١٧/ ٢١٠.

– عليه السلام – بالدلائل القاطعة والمعجزات الباهرة، ويكون قادرًا على إعلاء شأن رسوله وإظهار دينه وتقوية شرعه، ولما كان قادرًا على كل ذلك فقد بطل الاستهزاء والتعجب، ولما كان منزهًا عن النقائص والآفات كان منزهًا عن الخُلف والكذب، وكل ما وعد به فلا بد وأن يقع"([٣]).

٢. ٤. وفي بيان المقصد من خلق الرياح يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۤ حَتَّىٰۤ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالًا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف ٥٧]. ذكر القرآن الكريم أن الرياح "بشرًا" و"مبشرات" في سور: الفرقان والنمل والروم.

وقال تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر ٢٢]، فهنا ذكر القرآن الكريم أن الغرض من الرياح هو اللقاح.

ففي هذه الآيات الكريمة الخاصة بالرياح يتضح لنا أن الله تعالى خلق الرياح **لمقصدين**: الأول: هو أن تكون بشرى للناس، وهذه البشرى مرتبطة بالمقصد الثاني وهو أن الرياح تلقح السحاب، فينشأ عن ذلك الماء، فيرسله الله تعالى لبلدة ميتًا فيحييه بعد موته، فيشرب الناسُ وتشرب العجماواتُ، ويبقى ما يُخزنه الله تعالى لهم رحمة منه ولطفًا بالعباد الذين لا قدرة لهم على ادخاره وتخزينه؛ فهو فضلُ محضٍ ورحمة محضة من الله تعالى بالعباد.

٢. ٥. وفي المقصد من خلق الجبال يقول تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتًاۖ﴾ [الأعراف ٧٤]، وذكر أنها بيوت في سور الحجر والنحل والشعراء.

وقال عز شأنه: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء ٧٩].

وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادًا﴾ [النبأ ٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِى ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝١٦﴾ [النحل ١٥].

فمن هذه الآيات الكريمة تتبين المقاصد من خلق الجبال، وهي: جعلها بيوتًا، وأنها خلقت للتسبيح، وبرئت للسجود لله، كما تضيف الآياتُ هنا مقصدًا آخر لخلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب وكثير من الناس، وهو السجود لله تعالى بطريقة لا يعلمها إلا هو.

([٣]) الرازي، مفاتيح الغيب، ١٧/ ٢٦٦.

٢. ٦.وفي المقصد خلق الليل والنهار، يقول سبحانه: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [النور ٤٤]، وقال: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا﴾ [الإسراء ١٢]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾ [الفرقان ٦٢]، وقال: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [القصص ٧٣]، وقال: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [الأنعام ٩٦]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ [يونس ٦٧]، وقال: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [القصص ٧٣].

ففي هذه الآيات الكريمة يقرر القرآن الكريم أن تقليب الله الليل والنهار – ابتداءً – آيةٌ تستحق التأمل والتدبر مِن أولي الأبصار، وأن من مقاصد خلق الليل والنهار: أن يكونا خِلفةً للتذكُّر والعبرة، وأن الليل للسكن والراحة والهدوء والتقاط الأنفاس والاستجمام، وأن النهار لكسب المعاش والإبصار والابتغاء من فضل الله تعالى، وتحقيق الشكر له على نعمة الليل والنهار.

٢. ٧.وذكر المقصد من خلق الخيل والبغال والحمير، فقال سبحانه: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل ٨]، فبين أنها للركوب وللزينة.

٢. ٨.وذكر المقصد من خلق الأنعام، فقال سبحانه: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧﴾ [النحل ٥-٧]، فذكر أنها للدفء والمنافع والأكل والجمال وحمل الأثقال، وهذا كله يُجسّد رحمة الله تعالى بخلقه، مما يزيدهم حبًّا له وإقبالاً على عباته؛ حمدًا له وشكرًا، وهذا من باب مقاصد المقاصد.

أما مطلع سورة النبأ فقد جاء حاويًا لكثير من مقاصد الخلق الكوني؛ حيث يقول الله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ٧ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ٨ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا ٩ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ١١ وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ١٢ وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ١٣ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ١٤ لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ١٦﴾ [النبأ ٦-١٦].

***

وهكذا يذكر القرآنُ الكريم بشكل صريح الحكمةَ من هذه المخلوقات الكونية، وهذه أمثلة – مجرد أمثلة – على مقاصدية هذا الخلق الكوني، وإلا فهناك آيات تصرح بالمقصد من خلق الماء والهواء والنار والطير والبهائم والنحل والنمل والعنكبوت والسمك والبحار والذباب وغير ذلك، مما يدعو إلى التفكر والتدبر، المفضي إلى تعظيم الله في النفوس، وشكره على النعم، والقيام بحق العبودية له وحده دون سواه.

٩,٢.رسالة أبي حامد الغزالي:

وقد ألف الإمام أبو حامد الغزالي رسالة ضمن مجموع رسائله بعنوان: "الحكمة في مخلوقات الله عز وجل"، عدّد فيها من مخلوقات الله في الكون والحياة ما استطاع، وقال في مقدمة هذه الرسالة: "يا أخي وفقك الله توفيق العارفين، وجمع لك خير الدنيا والدين، إنه لما كان الطريق إلى معرفة الله سبحانه والتعظيم له في مخلوقاته والتفكر في عجائب مصنوعاته، وفهم الحكمة في أنواع مبتدعاته، **وكان ذلك هو السبب لرسوخ اليقين، وفيه تفاوت درجات المتقين**(٤)، وضعتُ هذا الكتاب منبهًا لعقول أرباب الألباب بتعريف وجوه من الحكم والنعم التي يشير إليها معظم آي الكتاب، فإن الله تعالى خلق العقول، وكمل هداها بالوحي، وأمر أربابها بالنظر في مخلوقاته، والتفكر والاعتبار مما أودعه من العجائب في مصنوعاته، لقوله سبحانه: ﴿قُلِ انْظُرُوا ماذا فِي السَّماواتِ والْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]. وقوله: ﴿وجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. إلى غير ذلك من الآيات البينات والدلالات الواضحات التي يفهمها متدبرها، والمترقي في اختلاف معانيها يُعظّم المعرفة بالله سبحانه التي هي سبب السعادة، والفوز بما وعد به عباده من الحسنى وزيادة، وقد بوبته أبوابًا يشتمل كلُّ باب على ذكر وجه الحكمة من النوع المذكور فيه من الخلق، وذلك حسب ما تنبهتْ له عقولُنا فيما أشرنا إليه، مع أنه لو اجتمع جميع الخلائق على أن يذكروا جميع ما خلق الله سبحانه وتعالى، وما وضع من الحكم في مخلوق واحد من مخلوقاته لعجزوا عن ذلك وما أدركته الخلائق، من ذلك ما وهب الله سبحانه لكل منهم، وما سبق له من ربه سبحانه، والله المسئول أن ينفعنا به برحمته وجوده"(٥).

---

(٤) هذا أيضا من باب مقاصد المقاصد؛ حيث ذكر أن التأمل والتدبر يقود إلى الوقوف على إدراك الحكمة من مخلوقات الله، وإدراك الحكمة ينتهي بالإنسان إلى رسوخ اليقين، ورسوخ اليقين يؤدي إلى تفاوت درجات المتقين، فانظر إلى التسلسل المقاصدي في كلام الإمام الغزالي!

(٥) الغزالي، الحكمة في مخلوقات الله عز وجل، ضمن مجموعة رسائل الإمام أبي حامد الغزالي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٦هـ: ٧-٨.

وذكر في هذه الرسالة الحكمة من عدد كبير من المخلوقات مثل: الشمس، والقمر، والكواكب، والأرض، والبحر، والماء، والهواء، والنار، والإنسان، والطير، والبهائم، والنحل، والنمل، والعنكبوت، ودود القز، والذباب، والنبات، والسمك، وغير ذلك في طول الرسالة وعرضها، ويستدل من آيات القرآن الكريم ونصوص السنة ما يذكر به المقاصد من خلق هذه المخلوقات جميعا.

ثم يقول في نهاية هذه الرسالة: "اعلم وفقنا الله وإياك أن جميع ما تقدم ذكره في هذا الكتاب من بدائع الخلق وعجائب الصنع، وما ظهر في مخلوقاته من الحكم آيات بينات، وبراهين واضحة، ودلائل دالات على جلال بارئها وقدرته، ونفوذ مشيئته وظهور عظمته، فإنك إذا نظرت إلى ما هو أدنى إليك وهي نفسك رأيت فيها من العجائب والآيات ما سبق التنبيه عليه وأعظم منه، ثم إنك إذا نظرت إلى مستقرك وهي الأرض وأجَلْتَ فكرك فيها، وأطلت النظر في استرسال ذهنك فيما جعل فيها وعليها من جبال شامخات، وما أحيط بها من بحار زاخرات، وما جرى فيها من الأنهار، وما انبثّ فيها من أصناف النباتات والأشجار، وما بث فيها من الدواب إلى غير ذلك مما يَعتبر به أولو الألباب، ثم إذا نظرت إلى سعتها وبُعد أكنافها، وعلمتَ عجز الخلائق عن الإحاطة بجميع جهاتها وأطرافها، ثم إذا نظرت فيما ذكرته العلماء من نسبة هذا الحق العظيم إلى السماء، وأن الأرض وما فيها بالنسبة إلى السماء كحلقة ملقاة في أرض فلاة...".

ويستمر بك هكذا في رحلة ماتعة مع الكون ثم يقول: "فارفع نظرك إلى البارئ العظيم، واستدل بهذا الخلق العظيم على قدر هذا الخالق العظيم، وعلى جلاله وقدرته وعلمه، ونفوذ مشيئته وإتقان حكمته في بريّته، وانظر كيف جميع هذا الصنع العظيم ممسوكًا بغير عَمَد تُقلّه، ولا علائق من فوقه ترفعه وتثبّته، فمن نظر في ملكوت السماوات والأرض ونظر في ذلك بعقله ولُبّه، استفاد بذلك المعرفة بربه والتعظيم لأمره، وليس للمتفكرين إلى غير ذلك سبيل، وكلما ردد العقل الموفق النظر والتفكر في عجائب الصنع وبدائع الخلق ازداد معرفة ويقينًا وإذعانًا لبارئه وتعظيمًا، ثم الخلق في ذلك متفاوتون، فكل مثال من ذلك على حسب ما وهبه له من نور العقل ونور الهداية، وأعظم شيء مُوصّل إلى هذه الفوائد المشار إليها تلاوة الكتاب العزيز، وتفهم ما ورد فيه وتدبر آياته مع ملازمة تقوى الله سبحانه"(٦).

٣. مقاصد خلق الإنسان:

أما مقاصد خلق الإنسان فمذكورة ومذخورة كذلك في القرآن العظيم، وقد تحدث القرآن الكريم عن خلق الإنسان، ومراحل هذا الخلق، وتطوره من مرحلة إلى أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ

(٦) الغزالي، الحكمة في مخلوقات الله عز وجل، ٤٥-٤٦.

فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [الحج: ٥].

وهذه الآية الكريمة وغيرها من الآيات في مواضع كثيرة من القرآن العظيم تقطع الطريق على مقولات مخالفة ونظريات أخرى تشوه هذا الخلق العظيم، وتخالف رواية القرآن الكريم الثابتة بيقين، وتقف مُشاقّة لخلق الله تعالى، فتزعم أن أصل الإنسان قرد ثم تطور، وبنوا على ذلك أمورا أخرى أدت بقطاع واسع من البشرية إلى الإلحاد.

٣. ١. تعريف مقاصد خلق الإنسان:

وقبل الحديث عن مقاصد خلق الإنسان نُعرِّف أولا بها، فهي: **الغايات التي خلق الله لأجلها الإنسان كي يَعرف مهمتَه في هذه الحياة فيهتدي ويَرشُد ويفوز في الدنيا والآخرة.**

والإنسان من أشرف مخلوقات الله تعالى، بل أشرفها على الإطلاق؛ حيث خلقه بيده، وسواه بنفسه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وشرفه وكلفه وكرمه، وسخر له ما في السموات ما في الأرض، ونترك المجال هنا للإمام الراغب الأصفهاني الذي تحدث عن ذلك في كتابه المفيد: "الذريعة إلى مكارم الشريعة"، فتحت عنوان: "ما لأجله أُوجد الإنسان"، قال الراغب:

"الإنسان من حيث هو إنسان كل واحد كالآخر كما قيل: فالأرض من تربة والناس من رجل، وإنما شرفه بأنه يوجد كاملًا في المعنى الذي أوجد لأجله، وبيان ذلك أن كل نوع أوجده الله تعالى في هذا العالم، أو هدى بعض الخلق إلى إيجاده وصنعه فإنه أوجد لفعل يختص به، ولولاه لما وجد، وله غرض لأجله خُصَّ بما خصَّ به، فالبعير إنما خصَّ بذلك ليحملنا وأثقالنا إلى بلد لم نكن بالغيه إلا بشق الأنفس، والفرس ليكون لنا جناحًا نطير به، والمنشار والمِنْحَت لنصلح بهما الباب والسرير ونحوهما، والباب لنحرز به البيت، والفعل المختص بالإنسان ثلاثة أشياء:

١ – عمارة الأرض المذكورة في قوله تعالى: (وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)، وذلك تحصيل ما به تُزجية المعاش لنفسه ولغيره.

٢ – وعبادته المذكورة في قوله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)، وذلك هو الامتثال للباري – عز وجل – في أوامره ونواهيه.

٣ – وخلافته المذكورة في قوله تعالى: (وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)، وغيرها من الآيات، وذلك هو الاقتداء بالباري – سبحانه – على قدر طاقة البشر في السياسة باستعمال مكارم الشريعة(٧).

وفي سياق آخر يتحدث عن الإيمان ويركز منه على جانب الأعمال الذي هو مقاصد خلق الإنسان فيقول: "الإيمان شيئان: اعتقاد وأعمال؛ **فالاعتقاد على ثلاث منازل:**

يقيني: لا يعتريه شك ولا شبهة بوجه، كما قال تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا). [الحجرات ١٥].

وظني: وذلك ما كان عن أمارة قوية، وأعني بالظن هاهنا ما يفسره أهل اللغة باليقين، نحو قوله تعالى: (الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ). [البقرة ٤٦].

وتقليدي: وذلك ما يعتقد عن رأي أهل البصائر، كما وصفه تعالى بقوله: (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ). [النساء ٨٣].

والأعمال ثلاثة:

عمارة الأرض: المعنية بقوله تعالى: (وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا). [هود ٦١].

وعبادة الله تعالى: المعنية بقوله: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ). [الذاريات ٥٦].

وخلافته: المعنية بقوله تعالى: (وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ) [الأعراف ١٢٩]، وقوله: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) [البقرة ٣٠]، وذلك بتحري مكارم الشريعة.

فهذه ستة، وكل واحد من هذه: إما أن يتحراه الإنسان عن رهبة، أو رغبة، كما قال تعالى: (وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا) [الأنبياء ٩٠]، أو يتحراه عن إخلاص تطوع واهتزاز نفس، كما قال تعالى: (وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ) [النساء ١٤٦]؛ **فهذه اثنتا عشرة منزلة.**

وكل واحدة من هذه المنازل: إما أن يكون الإنسان في مبتدئها أو وسطها أو منتهاها؛ لأن كل فضيلة ورذيلة لا ينفك الإنسان فيها من هذه الأحوال الثلاث؛ ولهذا قال تعالى في الفضيلة: (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا) [المائدة ٩٣]، وقال في الرذيلة: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا) [النساء ١٣٧]؛ فجعل منازل الإيمان ومنازل التقوى ثلاثة كما ترى، **فهذه اثنتا عشرة في ثلاثة تكون ستًّا وثلاثين.**

---

(٧) الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، تحقيق: أستاذنا د. أبي اليزيد أبو زيد العجمي. دار السلام. القاهرة، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م: ٨٢–٨٣.

وكل واحدة من هذه الست والثلاثين: إما أن يتوصل إليها الإنسان من طريق الاجتباء، أو من طريق الهداية. والاجتباء للأنبياء ومن يليهم من الأولياء وهو: إيثار الله تعالى بعض عباده بفيض إلهي وتأتيهم الحكمة بلا سعي منهم، وعلى هذا قوله: (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ) [يوسف ٦]، وقوله: (وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ) [آل عمران ١٧٩].

والاهتداء: للحكماء والعلماء، وهو توفيق الله تعالى العبد ليطلب بسعيه وجهده الحكمة فيتحصل له منها بقدر ما يتحمل من المشقة، وإياهما عني بقوله تعالى: (اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣)، وقوله تعالى: (وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا) [الشورى ١٣].

فهذه اثنتان وسبعون درجة لا يمكن الزيادة عليها ولا النقصان عنها، ذلك ما ورد من الأخبار فليس بخارج عنها، والله الموفق"(٨).

أما أبو حامد الغزالي فقد أفاض واستفاض في تتبع خلق الإنسان، وما فيه من أجهزة وأوردة وأعضاء وتفصيلات، يعجز العقل عن تصورها، والقلم عن الإحاطة بعجائبها، ويمكن الاطلاع على ذلك في رسالته(٩).

وبهذا تتضح مقاصد خلق الإنسان، ويزداد إيمان المؤمن بأن القرآن الكريم هو دستور هذا الإنسان الذي يعرف من خلاله قيمته في الحياة، وغاية وجوده في هذه الدنيا، وإلى أين مصيره، وهي الأسئلة التي حيرت الفلاسفة والمفكرين قديما وحديثا؛ بيد أنها واضحة كل الوضوح في كتاب الله تعالى.

٤ .فوائد العلم بمقاصد الخلق والتكوين:

اتساقا مع ما نتحدث فيه من روح مقاصدية تسري في خلق الكون والمخلوقات عامة والإنسان خاصة؛ فإن هذا الحديث ليس هملا بغير غاية، وإنه من المفيد والمنطقي أن نبين ما للحديث عن مقاصد الخلق والتكوين من فوائد، ومن خلال تناولنا لمقاصد ما سبق يمكننا رصد فوائده في الآتي:

٤ . ١ . امتثال أمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم بالتفكر في الكون:

أمر الله تعالى بالتفكر في **الخلق وفي الكون وفي النفس في آيات كثيرة من القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى في التفكر في خلق السموات والأرض والليل والنهار والبحر والأمطار والرياح والسحاب،**

(٨) الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة: ١٦٣-١٦٤. وتخريج الآيات من عمل الباحث.

(٩) الغزالي، الحكمة في مخلوقات الله عز وجل، ١٨-٢٨.

وكل هذا من خلقه تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة ١٦٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران ١٩٠]. وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس ١٠١]. فالله تعالى هنا يدعو عباده للنظر والاعتبار بما يقودهم إلى أن الله تعالى هو المستحق للعبادة والحمد.

وقوله تعالى في التفكر في خلق الإنسان: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِي أَنفُسِهِمْ﴾ [الروم ٨]، وقوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات ٢١]، قال الإمام القرطبي: "قال ابن زيد: المعنى أنه خلقكم من تراب، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة (ثم إذا أنتم بشر) (تنتشرون). السدي: (وفي أنفسكم) أي في حياتكم وموتكم، وفيما يدخل ويخرج من طعامكم. الحسن: وفي الهرم بعد الشباب، والضعف بعد القوة، والشيب بعد السواد. وقيل: المعنى وفي خلق أنفسكم من نطفة وعلقة ومضغة ولحم وعظم إلى نفخ الروح، وفي اختلاف الألسنة والألوان والصور، إلى غير ذلك من الآيات الباطنة والظاهرة، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول، وما خصت به من أنواع المعاني والفنون، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف والأبصار والأطراف وسائر الجوارح"(١٠).

وقوله تعالى في خلق النبات: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر ٢١]، قال العلامة الآلوسي: "لأصحاب العقول الخالصة عن شوائب الخلل وتنبيها لهم على حقيقة الحال يتذكرون بذلك حال الحياة الدنيا وسرعة تقضيها، فلا يغترون ببهجتها، ولا يفتنون بفتنتها، أو يجزمون بأن من قدر على إنزال الماء من السماء والتصرف به على أتم وجه قادر على إجراء الأنهار من تحت تلك الغرف، وكأن الأول أولى ليكون ما تقدم ترغيبا في الآخرة، وهذا تنفيرا عن الدنيا، وقيل المعنى إن في ذلك لتذكيرا وتنبيها على أنه لا بد لذلك من صانع حكيم، وأنه كائن على تقدير وتدبير لا عن تعطيل وإهمال"(١١).

(١٠) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. دار الكتب المصرية. القاهرة. الطبعة الثانية. ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م: ١٧/ ٤٠.

(١١) الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى. ١٤١٥هـ: ١٢/ ٢٤٦.

أما في السنة النبوية فحسبنا ما أخرجه الإمام السيوطي في الجامع الصغير بسنده عن عبد الله بن عباس أن النبي قال: "تفكَّرُوا فِي خَلْقِ اللهِ، ولا تَفَكَّرُوا فِي اللهِ"(١٢). وهو حديث آمِرٌ بالتفكر في خلق الله، وموجه للعقل إلى المساحة التي يجب أن يستثمر فيها طاقته، وصرفه عن المساحة التي لا مدخل له فيها.

فهذه النصوص الشرعية آمِرةٌ بالتفكر في خلق الله وكونه، وذُيّلت الآيات القرآنية بأولي الألباب وقوم يعقلون، مع بيان بعض الفوائد المترتبة على ذلك، مثل: زيادة الإيمان والاعتبار والاتعاظ وغير ذلك، ومن هنا فالقيام بالتفكر يأتي في قمة فوائده امتثالُ أمر الله تعالى، ورسوله صلى الله عليه وسلم.

٤. ٢. امتثال أمر الله تعالى بالتفكر في القرآن الكريم:

ورد في القرآن الكريم آيات آمرة بالتفكر في القرآن، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء ٨٢]، قال العلامة جمال الدين القاسمي: "إنكار واستقباح لعدم تدبرهم القرآن وإعراضهم عن التأمل فيما فيه من موجبات الإيمان؛ ليعلموا كونه من عنده تعالى، بمشاهدة ما فيه من الشواهد التي من جملتها هذا الوحي الصادق والنص الناطق بنفاقهم المحكي على ما هو عليه ... قال الزجاج: ولولا أنه من عند الله تعالى لكان ما فيه من الإخبار بالغيب، مما يسره المنافقون وما يبيتونه، مختلفا: بعضه حق وبعضه باطل؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى"(١٣).

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد ٢٤]. قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور: "والمعنى: أن الله خلقهم بعقول غير منفعلة بمعاني الخير والصلاح فلا يتدبرون القرآن مع فهمه أو لا يفهمونه عند تلقيه، وكلا الأمرين عجيب، والاستفهام تعجيب من سوء علمهم بالقرآن، ومن إعراضهم عن سماعه... والتدبر: التفهم في دُبُر الأمر، أي ما يَخفى منه وهو مشتق من دبر الشيء، أي خلفه ... وتنكير قلوب للتنويع أو التبعيض، أي على نوع من القلوب أقفال، والمعنى: بل بعض القلوب عليها أقفال، وهذا من التعريض بأن قلوبهم من هذا النوع؛ لأن إثبات هذا النوع من القلوب في أثناء التعجيب من عدم تدبر هؤلاء القرآن يدل بدلالة الالتزام أن قلوب هؤلاء من هذا النوع من القلوب ذوات الأقفال"(١٤).

---

(١٢)الألباني، صحيح الجامع الصغير وزياداته، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م. رقم (٢٩٧٦)، وقال: "حسن".

(١٣) القاسمي، محاسن التأويل، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلميه، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ: ٣/ ٢٣٣.

(١٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ: ٢٦/ ١١٣-١١٤.

فهاتان الآيتان الكريمتان تدعوان إلى التفكر في القرآن الكريم، وضمن آيات القرآن آيات التفكر في الكون والخلق بكل أنواعه، فالقرآن الكريم تضمن آياتِ الخلق والكون كما تضمن آيات التشريع والأمر، وهذا كله يدعو إلى التفكر في آيات الخلق وآيات التشريع.

٤. ٣. تحقيق الإيمان الحق بالله تعالى في قلوب المؤمنين:

في القرآن الكريم توضيح أن مجرد الإيمان شيء، وأن الإيمان الحق شيء آخر، فالله تعالى أمر بالإيمان به فقال: "﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء ١٣٦]. أما في الإيمان الحق فقال تعالى مبينا صفات أهل الإيمان الحق في مطلع سورة الأنفال ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [الأنفال ٤]، وقال في السورة نفسها: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [الأنفال ٧٤].

وعن أنس بن مالك أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خرج يوما فاستقبله شاب من الأنصار يقال له: حارثة بن النعمان، فقال له: "كيف أصبحت يا حارثة؟" قال: أصبحت مؤمنًا حقًّا، قال: فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "انظر ما تقول، فإن لكل حق حقيقة إيمانك؟" قال: فقال: عزفتْ نفسي عن الدنيا، فأسهرتُ ليلي وأظمأتُ نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة كيف يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار كيف يتعادون فيها، فقال: فقال له النبي – صلى الله عليه وسلم –: "أبصرت فالزم، مرتين، عبدٌ نوّرَ اللهُ الإيمان في قلبه"، قال: فنودي يوما في الخيل: يا خيل الله اركبي، فكان أول فارس ركب، وأول فارس استشهد، فجاءت أمه إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقالت: يا رسول الله، أخبرني عن ابني حارثة، أين هو؟ إن يكن في الجنة لم أبكِ ولم أحزن، وإن يكن في النار بكيتُ ما عشت في الدنيا، قال: فقال لها رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "يا أم حارثة، إنها ليست بجنة ولكنها جنان، وحارثة في الفردوس الأعلى"، قال: فانصرفت وهي تضحك وتقول: بخٍ بخٍ لك يا حارثة"(١٥).

ففي الآيتين السابقتين وحديث حارثة وصفٌ للإيمان بأنه "إيمان حق" و"حق الإيمان"، وهذه درجة أعلى من مجرد الإيمان، ولن تتحقق حقيقة الإيمان في قلوب المؤمنين إلا بالتفكر في كتابين: كتاب الله المنظور "الكون وما فيه"، وكتاب الله المسطور "الآيات القرآنية"، وكلا الكتابين أمرَ القرآنُ الكريم بالتفكر فيهما.

(١٥) البيهقي، شعب الإيمان: ١٣/ ١٥٨، حديث رقم (١٠١٠٦)، والعسقلاني، مختصر زوائد مسند البزار على الكتب الستة ومسند أحمد، ١/ ١٧.

٤. ٤. زيادة محبة الله تعالى بالتعرف إلى نعمه:

إن الإنعام هو أكبر باب للمحبة ومعرفة اليد والفضل، وقد قال الشاعر أبو الفتح البستي:

أحسِنْ إلى النّاسِ تَستَعبِدْ قُلوبَهُمُ ** فطالَما استبَعدَ الإنسانَ إحسانُ

وإذا كان هذا من الإسنان للإنسان، فكيف إذا كان الأمر من الله للعبد؟!

والقرآن الكريم ذكر مدى نعم الله تعالى على الإنسان، وأنها لا تقع تحت حصر، قال جل شأنه: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل ١٨].

وقد أوردنا سلفا ما خلقه الله تعالى من سموات وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر، ورياح ومطر، وخيل بغال وحمير وأنعام، وبين أغراض كل هذا الحلق وأنه إنما خلق للإنسان، وأن كل ما في السموات والأرض مسخر للإنسان.

فنحن هنا أمام مدونة قرآنية من الخلق وبيان مقاصده، وأنه للإنسان، فبيان مقاصد هذا الخلق يظهر نعمة الله على الإنسان، وقد قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةًۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان ٢٠]. فهذا كله يزيد المسلم محبة لله تعالى حين يتعرف إلى خلقه والمقاصد منها.

٤. ٥. تحقيق تعظيم الله تعالى بالتعرف إلى أسرار خلقه:

إن التأمل في هذا الملكوت، وما به من إعجاز وإحكام ليبعث في النفس تعظيم الخالق القادر المهيمن العزيز الجبار البارئ المهيمن المصور؛ فهو سبحانه أبدع هذا الكون، وأحكم هذا الخلق: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك ٣].

ومن تتبع كل مخلوقات الله، وتدبر أسرارها ومقاصد وجودها أو غايات خلقها عَظُمَ اللهُ أو عظَّم اللهَ — تبارك وتعالى — في نفسه، ومجده في قلبه، وانتزع هذا التأملُ في أسرار الخلق الحمدَ من أعماقه، كيف لا وقد أوجد كل شيء لغاية، وأبدع كل خلق لمقاصد، وخلق كل شيء فقدره تقديرا، فسبحانه وتعالى عما يشركون.

ولهذا يقرر القرآن الكريم أن الخلق ما قدَرُوا الخالقَ حق قدره ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج ٧٤]؛ فهو قوي لا يجري شيء في كونه إلا بأمره، ولا يتحرك أي متحرك إلا بإذنه، وهو الذي يُمسك السموات والأرض أن تزولا، ويُمسك السموات أن تقع على الأرض إلا بإذنه، فانظر إلى هذه القدرة القاهرة وهذه الهيمنة الإلهية، وكمال قدرته بل طلاقة قدرته بما يثمر في نفس المؤمن مقاصد عظيمة وفوائد

جليلة، ومنها: بثُّ السكينة والاطمئنان، والعزة بالله تعالى وطلاقة قدرته، وحسن التوكل عليه، والتحرر من كل ما سواه.

وفي سياق آخر يتحدث عن عظمة الله في اليوم الآخر، وأن الخلق أيضا ما قدروا الله حق قدره، وهو مالك هذا اليوم، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الزمر ٦٧].

إن التأمل في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء، والتدبر في وظائف كل مخلوق، في الكون أو في السماوات أو في الأرض أو فيما بينهما، لا يمكن إلا أن يزيد المؤمن إيمانا، ويزيد الله تعظيما في نفسه مما يكون له الأثر الكبير في الاستقامة في السلوك، والرشد في التفكير، والخوف من الله، وهذا كله ينعكس إيجابا على مسيرة الإنسان لأداء وظائفه بشكل فاعل في هذه الحياة، وهي –كما أسلفناها من قبل – الخلافة، والعبادة، والعمارة.

٤. ٦. زيادة الإيمان بأسماء الله الحسنى من خلال رصد آثارها في الأنفس والآفاق:

خلق الله تعالى هذا الكون على غير نظام سابق؛ ولهذا قال جل شأنه: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة ١١٧]، وذكر لكل خلق من خلقه أسرارَه ووظائفَه ومهماتِه كما سبقت الإشارة، وفي هذا الخلق تتجلى الآثار العظيمة لأسمائه الحسنى وصفاته العلى؛ فهو الخالق الذي خلق، واستوى على العرش، وسخر الشمس والقمر، فهو الخالق المصور البارئ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف ٥٤].

ومراحل خلق الإنسان وما فيها من لطف إلهي وقدرة مطلقة على التصريف والتصوير: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون ١٢-١٤].

وكذلك التأمل في أطوار حياته ومراحل وجوده في الحياة الدنيا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾ [الروم ٥٤].

إن كل خلق من هذا الخلق لتتجلى فيه آثارُ كلِّ اسمٍ من أسماء الله الحسنى، فترى في كل خلق من خلقه آثار هذه الأسماء: الحكيم والرحيم والعزيز والقوي والمتين والقابض الباسط، والضار النافع، والقهار، والجبار،

والمتكبر، وهكذا إلى آخر الأسماء الحسنى، فكل آية قرآنية وآية كونية يمكنك أن تطبقها على الأسماء الحسنى جميعا.

وكذلك الصفات العلى من حكمة ورحمة وعلم وسعة وستر ولطف وقوة إلى آخر هذه الصفات الجليلة، وهو ما يضاعف إيمان المؤمن بربه من خلال استشعاره وإحساسه بالآثار العظيمة الجليلة لأسمائه الحسنى وصفاته العلى التي تتجلى في كونه وخلقه.

وحسبنا أن نقرأ هذه الآياتِ القرآنيةَ الكريمة متأملين ما فيها من آثار الأسماء والصفات، وما تتجلى فيه من بيان عظيم ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل ٥٩-٦٤].

٤. ٧. اهتداء الإنسان إلى مهمات وجوده في الحياة وحسن القيام بها:

ومن فوائد معرفة مقاصد الخلق أن يقف الإنسان على مهمات وجوده في هذه الحياة، فهذا الإنسان لم يُخلق عبثا: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾ [المؤمنون ١١٥]. ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص ٢٧].

وإنما خُلق لغايات ذكرناها عند الحديث عن مقاصد خلقه، وكما نقلناها عن الراغب الأصفهاني، وهي: الخلافة، والعمارة، والعبادة، فالإنسان لو خلقه الله تعالى وتركه بلا وحي يبين له مقاصد خلقه ومهمات وجوده لما استطاع أن يهتدي إليها إلا بعد بذل جهد كبير وتأمل طويل، لو وصل، وهذا ما جعل فلاسفة الدنيا يحارون في هذه الأسئلة الوجودية: من أنا؟ ومن أين أتيت؟ ولماذا؟ وإلى أين؟، الأمر الذي جعل شاعرا مثل إيليا أبي ماضي يقول:

جئت، لا أعلم من أين، ولكنّي أتيت
ولقد أبصرت قدّامي طريقا فمشيت
وسأبقى ماشيا إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟

لست أدري!

لكن القرآن الكريم جعلنا ندري من نحن؛ فبين طبيعة الإنسان وتحدث عنه، وجعلنا ندري من أين أتينا، من طين، وسوَّانا ربُّنا تعالى، ونفخ فينا من روحه، وأسجد لنا الملائكة، وكرّمنا وشرفنا، وأرسل لنا الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وسخر لنا ما في السموات وما في الأرض جميعا منه، وجعَلنا ندري لماذا خُلقنا، وبين لنا مهماتِنا في هذه الحياة، وهي: للخلافة والعمارة والعبادة.

وجعلنا ندري إلى أين المصير، إلى جنة عرضها السموات والأرض، أو إلى جهنم وبئس القرار، وأخبرنا أن هناك ميزانا ينصب، وحسابا يجري، وثوابا وعقابا، فالدنيا ليست نهاية المطاف، وإنما هناك آخرة يحاسب فيها الناس، فينتصف فيها المظلوم من الظالم، ويقال لأهل الجنة: حياة بلا موت، ولأهل النار: حياة بلا موت.

ومعرفة الإنسان المقاصد من خلقه يعينه على فهم مهماته، ويقفه على مقاصد وجوده، وهذا يعينه على حسن القيام بهذه المقاصد، وتحرِّي تحقيقها، وحسن القيام بها، فيجدد الدين ويجود التدين، ويَعْمر الأرض، ويملأ الدنيا خيرا ونفعًا.

٤. ٨. تحقيق اهتداء الإنسان إلى طرق تسخير الكون والخلق لصالحه:

ذكر القرآن الكريم أنه سخر للإنسان ما في الأرض جميعا، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية ١٣]. فما أعظم هذا التذييل في الآية الكريمة: "إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون".

وما أحسن ما قاله العلامة عبد الرحمن السعدي في تفسير هذه الفاصلة إذ يقول: "وجملة ذلك: أنَّ خلقَها وتدبيرها وتسخيرها دالٌّ على نفوذ مشيئة الله وكمال قدرته، وما فيها من الإحكام والإتقان وبديع الصنعة وحسن الخلقة دال على كمال حكمته وعلمه، وما فيها من السعة والعظمة والكثرة دال على سعة ملكه وسلطانه، وما فيها من التخصيصات والأشياء المتضادات دليل على أنه الفعال لما يريد، وما فيها من المنافع والمصالح الدينية والدنيوية دليل على سعة رحمته، وشمول فضله وإحسانه وبديع لطفه وبره، وكل ذلك دال على أنه وحده المألوه المعبود الذي لا تنبغي العبادة والذل والمحبة إلا له، وأن رسله صادقون فيما جاءوا به، فهذه أدلة عقلية واضحة لا تقبل ريبًا ولا شكًّا"(١٦).

(١٦) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م: ٧٧٦.

وفي سورة إبراهيم سرد لما سخره الله للإنسان، يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم ٣٢-٣٤].

فمن فوائد معرفة مقاصد ما خلقه الله تعالى – إذن – أن يعرف الإنسان وظائف ومقاصد هذا الخلق، ومن فوائد معرفته لمقاصد هذا الخلق أن يعرف كيف يتعامل معه، وكيف يستفيد منه بما هو مسخر له، وقد خلق الله هذا الكون كله تسخيرا للإنسان وخدمة له؛ ليكون ذلك عونًا له على تحقيق مقاصد وجوده.

وما ذكرناه سلفًا من مقاصد الخلق: الليل والنهار، والشمس والقمر، والسموات والأرض، والخيل والبغال والحمير والأنعام، وغير ذلك، كل هذه المقاصد التي ذكرها القرآن لهذه المخلوقات تجعل الإنسان يقف عليها، ويعرف كيف يُسخرها ويفيد منها؛ لتعينه على أداء مهمته وتحقيق رسالته.

٤. ٩. استثمارها في تعزيز تزكية المسلمين وتجويد تدينهم:

ومن فوائد معرفة مقاصد الله في خلقه استثمارُ هذه الفوائد في تعزيز تزكية المسلمين وتجويد تدينهم، وهي بعض حصاد هذه الفوائد، فهي بمثابة فوائد الفوائد لمعرفة المقاصد.

فإن من المصادر الأصلية لتزكية النفوس التأمل في خلق الله؛ ولهذا أمرنا — سبحانه – بالتدبر في الكون والخلق: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس ١٠١]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف ١٨٥].

إن هذا التأمل الذي يُثمر الفوائد السابقة من تعظيم الله في النفوس، وامتثال لأمره وأمر نبيه، واهتداء الإنسان لمهماته، وزيادة الإيمان في النفوس، وتجسيد آثار أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وغير ذلك مما ذكرناه من فوائد، يعود على المسلمين بعد تزكيتهم بتجويد تدينهم والقيام بالعبادة بحب وشوق: بحبٍّ في الأداء، وشوق إلى العبادة؛ فيعبدون الله تعالى حبًّا وشوقًا، وإحسانًا وإتقانًا؛ لأنهم تعرّفوا عليه في خلقه، وازدادوا إيمانًا بتفكّرهم في كونه، كما يزدادون إيمانًا بإنصاتهم لآياته في كتابه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال ٢].

٤. ١٠. استثمارها في دعوة غير المسلمين للإسلام:

ومن فوائد العلم بمقاصد الخلق والكون – أخيرًا – أن هذا يفيد العلماء والدعاء إلى الله تعالى بل أي مسلم وقف على هذه المقاصد: أنها باب واسع وذُخر متجدد في دعوة غير المسلمين إلى الإسلام من خلال التأمل والتدبر في الآيات الكونية.

وهذا ما اهتدى إليه الأعرابيُّ البسيط من قديم حين سئل عن أدلة وجود الله تعالى، فقال بكل ثقة وصفاء: "البعرة تدلّ على البعير، وأثرُ الأقدام على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، أما يدلّان على الصّانع الخبير".

إن ما نعيشه اليوم من عوالم مفتوحة، وآفاق ممتدة في التواصل والانفتاح التام بلا حدود ولا حواجز أو موانع قد تُدخل الإلحاد في بيوتنا وإلى قلوب أبنائنا، فهو – في الوقت نفسه – فرصة من ناحية أخرى لدعوة غير المسلمين إلى الدين الحق من خلال استعراض هذا الكون العظيم، ونظرياته الكامنة فيه، والتي اكتشف العلم الحديث طرفًا منها.

إن التأمل في إحكام الخلق بالطرق العلمية التجريبية، والتأمل في خلق الإنسان وما يضمه جسده من أجهزة، والتأمل في النبات والحيوان والشمس والقمر والليل والنهار والشجر والدواب، واستجلاء مكامن العظمة فيه، والكشف عن معالم القدرة والعلم والحكمة الإلهية لهو من الأبواب الكبرى لقيادة البشرية إلى الله، الذي خلق هذا الخلق، ودبر أمره، وقدر رزقه، وحدد عمره، وهو الحكيم الخبير.

ومن ثم فإننا لن نستطيع أن نستثمر هذه المقاصد الكونية في دعوة غير المسلمين إلى الإسلام إلا إذا وقفنا نحن عليها، وتعرفناها من خلال آيات القرآن الكريم، واطلعنا على النظريات العلمية الحديثة في إعجازها وإبداعها وإتقانها، فما أحرى الدعاة إلى الله أن يقوموا بواجب الدعوة من خلال هذا الباب من العلم الشريف، وما ألفه العلماء قديمًا وحديثًا في إعجاز القرآن والإعجاز الكوني والخَلقي لا يكاد يحصى، ومن المفيد للمسلمين عامة، والدعاة خاصة، أن يحملوا هذه الثقافة المهمة في كل عصر عامة، وفي عصرنا خاصة.

خاتمة ونتائج

كشفت هذه الدراسة عن عدد من الأمور، أهمها:

أن تعريف مقاصد الخلق الكوني هي الغايات التي خلق الله لأجلها المخلوقات سوى الإنسان لمعرفة تسخيرها وتحقيق مصلحة الإنسان في الدنيا والآخرة.

وأن تعريف مقاصد خلق الإنسان هو الغايات التي خلق الله لأجلها الإنسان؛ كي يَعرف مهمتَه في هذه الحياة؛ فيهتدي ويَرشُد ويفوز في الدنيا والآخرة.

وأن مقاصد الله من خلقه تتمثل في ثلاثة مقاصد، هي: الخلافة، والعبادة، والعمارة.

وأن القرآن الكريم يحتوي على مدونة هائلة من الآيات التي تتحدث عن المخلوقات الكونية والأرضية، وخلق الحيوان والنبات والرياح، وبيان مقاصدها جميعا، وكذلك السنة النبوية.

وأن فوائد العلم بمقاصد الخلق عظيمة وجليلة ومهمة، وهي: امتثال أمر الله تعالى ورسوله – صلى الله عليه وسلم – بالتفكر في الكون، وامتثال أمر الله تعالى بالتفكر في القرآن الكريم، وتحقيق الإيمان الحق بالله تعالى في قلوب المؤمنين، وزيادة محبة الله تعالى بالتعرف إلى نعمه، وتحقيق تعظيم الله تعالى بالتعرف إلى أسرار خلقه، وزيادة الإيمان بأسماء الله الحسنى من خلال رصد آثارها في الأنفس والآفاق، واهتداء الإنسان إلى مهمات وجوده في الحياة وحسن القيام بها، وتحقيق اهتداء الإنسان إلى طرق تسخير الكون والخلق لصالحه، واستثمارها في تعزيز تزكية المسلمين وتجويد تدينهم، واستثمارها في دعوة غير المسلمين للإسلام.

إن الله تعالى لم يخلق شيئا عبثًا ولا باطلا – سبحانه – ومن أجل هذا يجب أن نقرأ الآيات الكونية والآيات القرآنية معًا، وهما مصدر الإيمان الحقيقي؛ لنقف على حقائق الكون والوجود، ونعيد اكتشاف وجودنا نحن في هذه الحياة، ونضع أيدينَا على طبيعة استثمار هذه المخلوقات وكيفية تسخيرها لنا؛ كي نقوم بمهمات رسالتنا في هذا الوجود: خلافةً لله في ملكه، وعمارةً له في أرضه، وعبادةً له آناء الليل وأطراف النهار.

وبهذا يتبين لنا أثر النظر المقاصدي في خلق الله وكونه، وأهمية الفوائد المستفادة من هذا التفعيل: تأثيرا وتأثرا.

المصادر والمراجع

ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ)، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ.

الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)،الذريعة إلى مكارم الشريعة، تحقيق: أستاذنا د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي. دار السلام. القاهرة. ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، صحيح الجامع الصغير وزياداته، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني (ت ١٢٧٠هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى. ١٤١٥هـ.

البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، شعب الإيمان، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي، الملقب بفخر الدين الرازي، (ت: ٦٠٦ هـ)، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير. دار إحياء التراث العربي، بيروت. بدون بيانات.

السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت ١٣٧٦هـ)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق. مؤسسة الرسالة. الطبعة الأولى. ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين، ابن حَجَر (ت ٨٥٢هـ)، مختصر زوائد مسند البزار على الكتب الستة ومسند أحمد، تحقيق: صبري عبد الخالق أبو ذر. مؤسسة الكتب الثقافية. بيروت. الطبعة الأولى. ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥هـ)، الحكمة في مخلوقات الله عز وجل، ضمن مجموعة رسائل الإمام أبي حامد الغزالي، دار الفكر - بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٦هـ.

القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، محاسن التأويل، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلميه، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي (ت ٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. دار الكتب المصرية. القاهرة. الطبعة الثانية. ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.